موت أمٍّ(١)

رجعتُ من الجَنازة بعد أن غبّرْتُ قدميَّ ساعةً في الطَّريق ؛ الَّتي ترابُها ترابٌ وأشعَّةٌ ، وكانت في النَّعش لؤلؤةٌ آدميَّةٌ محطَّمةٌ ، هي زوجةُ صديقٍ طَحْطَحَتْها(٢) الأمراضُ ، ففرَّقتها بين علل الموت ، وكان قلبُها يُحييها ، فأخذ يُهلكُها ، حتَّى إذا دنا أن يَقْضيَ عليها ـ رحمها الله ـ فقضى فيها قضاءَه . ومن ذا الَّذي مات له مريضٌ بالقلب ولم يره من قلبه في علَّته كالعصفورة التي تَهْتَلِكُ تحت عيني ثعبانٍ ، سلَّط عليها سُمومَ عينيه ! .

كانت المسكينةُ في الخامسة والعشرين من سنِّها ، أما قلبُها ففي الثَّمانين أو فوق ذلك ، هي في سنِّ الشباب وهو متهدِّمٌ في سنِّ الموت .

وكانت فاضلةً تقيَّةً صالحةً ، لم تتعلَّم ، ولكنَّ علْمَها التَّقوى ، والفضيلة . **وأكمل النِّساء عندي ليست هي التي ملأت عينيها من الكتب ، فهي تنظر إلى الحياة نظراتٍ تَحِلُّ مشاكلَ ، وتخلق مشاكل ؛ ولكنَّها تلك التي تنظر إلى الدُّنيا بعين متلألئة بنور الإيمان ، تُقِرُّ في كلِّ شيءٍ معناه السَّماوي ، فتؤمنُ بأحزانها ، وأفراحها معاً ، وتأخذ ما تُعطَى من يد خالقها رحمةً معروفةً ، أو رحمةً مجهولةً . هذه عندي تسمَّى امرأةً ، ومعناه : المعبدُ القُدسي ؛ وتكون الزَّوجةَ ، ومعناها : القوَّةُ المُسْعِدة ؛ وتَصيرُ الأمَّ ، ومعناه التكمِلَةُ الإلهيَّةُ لصغارها ، وزوجِها ، ونفسِها .**

ومعها تبلغ المرأةُ من العلم فالرَّجلُ أعظم منها بأنَّه رجلٌ ، ولكنَّ المرأةَ حقَّ المرأةِ هي تلك الَّتي خُلقت لتكونَ للرَّجل مادةَ الفضيلة ، والصَّبرِ ، والإيمان ، فتكون له وحياً ، وعزاءً ، وقوَّةً ؛ أي : زيادةً في سروره ، ونقصاً من آلامه .

ولن تكونَ المرأةُ في الحياة أعظمَ من الرَّجل إلا بشيءٍ واحدٍ ، هو صفاتها التي تجعل رجُلَها أعظمَ منها .

* * *

(١) هي زوجُ صديقنا الأستاذ حسنين مخلوف . وانظر : « عمله في الرسالة » من كتاب : (حياة الرافعي) . (س) .

(٢) « طحطحتها » : طحطح : كسر ، وفرَّق ، وبدَّد إهلاكاً .

ومشيتُ من البيت الذي ألبسته الميتةُ معنى القبر ، إلى القبر الذي ألبسَ الميتةَ معنى البيت . وأنا منذ مشيتُ في جنازة أمِّي (رحمها الله) لا أسير في هذه الطريق مع الأحياء ، ولكن مع الموتى ، فأتبعُ من الميتِ صديقاً ، ليس رجلاً ، ولا امرأةً ؛ لأنَّه من غير هذه الدُّنيا ؛ وأمشي في ساعةٍ ليست ستِّين دقيقةً ؛ لأنَّها خرجت من الزَّمن ؛ ولا أرى الطَّريقَ من طرق الحياةِ ؛ لأنَّني في صحبة ميت ؛ وتُصبح للأرضِ في رأيي جغرافيةٌ أخرى عَمِيَ النَّاسُ عنها ؛ لشدَّة وضوحها ، كالألوهيَّة خفيتْ من شدَّة ما ظهرتْ .

يقولون : إنَّ ثلاثة أرباع الأرضِ يَغمرها البحر . أما أنا فأرى في تلك السَّاعة أنَّ ثلاثة أرباع الأرض لا يغمرها البحر ؛ الذي وصفوا ، ولكن خِضَمٌّ آخرُ ، زخَّار مُتَضَرِّب ، هو ذلك البحرُ التُّرابيُّ العظيمُ المسمَّى « المقبرة » .

يقولون : إنَّ الحياةَ هي . . . هي ماذا ـ ويْحكم ـ أيُّها المغرورون ! أفلا تَرَون هذه الصِّلةَ الدَّائمة بين بطنِ الأم ، وبطن الأرض ؟

* * *

لعمري كيف تجعلُ هذه الحياةُ للنَّاس قلوباً مع قلوبهم ، فيحسُّ المرء بقلبٍ ، ويعملُ بقلبٍ آخر : يعتقد ضررَ الكذب ، ويكذب ، ويعرف مَعَرَّة الإثم ، ويأثم ، ويُوقن بعاقبة الخيانة ، ثمَّ يخون ؛ ويمضي في العمر منتهياً إلى ربِّه . . . ؟

هبَّت الرِّيحُ في السَّحَرِ على روضةٍ غنَّاءَ ، فطابت لها ، فعقدتْ عُقدتَها أن تتخذَ لها بيتاً في ذلك المكان الطَّيب ؛ لتقيم فيه . . . يا لها حكمةً في التَّدبير ! تزعم الرِّيحُ الإقامةَ على حين كلُّ وجودِها هو لحظةُ مرورِها ، وتحلُم بالقَرار في البيت ، وهي لا تملك بطبيعتها أن تقف .

يا لها حكمةً سامية ، لا يسكنُها من المعنى إلا أسخفُ ما في الحُمق ! .

* * *

هَمَدَ[1] الحيُّ ، وانطفأت عيناه ، ولكنَّه تحرَّك في تاريخه ممَّا ضيَّقَ على نفسه ، أو وَسَّع ، وأصبح ينظر بعينٍ من عمله إمَّا مُبْصِرةٍ ، أو كالعمياء ؛ فلو تكلَّم يصف الحياةَ الدُّنيا ؛ لقال : إنَّ هذه النُّجومَ على الأرض مصابيحُ مأتمٍ ، أقيم

---

(١) « همد » : سكن .

بليلٍ . ومأعجبَ أن يجلس أهلُ المأتم في المأتم ؛ ليضحكوا ، ويلعبوا !

ولو نطق الموتى ؛ لقالوا : أيُّها الأحياء ، إنَّ هذا الحاضرَ الذي يمرُّ ، فيكونُ ماضيَكم في الدُّنيا ، هو بعينه الذي يكون مستقبلَكم في الآخرة ، لا تزيدون فيه ، ولا تنقصون . وإنَّ الدُّنيا تبدأ عندكم من الأعلى إلى الأدنى ، من العظماء إلى الفقراء ، ولكنَّها تنقلب في الآخرة ، فتبدأ من الفقراء إلى العظماء ، وأنتم ترسمونها بخطوطِ المطامع والحظوظ ، ويرسمها الله بخطوط الحرمان ، والمجاهدة ؛ إنَّ التامَّ على الأرض مَن تمَّ بمتاعها ، ولذَّاتها ، ولكن التامَّ في السماء من تمَّ بنفسه وحدها .

* * *

يا أسفا ! لن يقولَ الميِّتُ للحي شيئاً ، ومن يدري ؟ لعلَّنا ونحن نُلْحِدُ للموتى ، ونُنزِلهم في قبورهم ، يَرون بأرواحهم الخالدة أنَّنا نحن موتاهم المساكين ، وأنَّنا مدفونون في القبر ؛ الذي يسمُّونه « الكرة الأرضية » ! وهل الكرةُ الأرضيةُ من اللانهاية إلا حفرةٌ برجْلِ نملة ؛ لتُدْفَن فيها نملة ؟! .

الحياة . . . أتريد أن تعرفَها على حقيقتها ؟ هي المُبْهَماتُ الكثيرةُ التي ليس لها في الآخِر إلا تفسيرٌ واحدٌ : حلالٌ ، أو حرام .

* * *

ورجعنا مع الصَّديق إلى بيته ، وله خمسةُ أطفال صغارٍ ، لو أنَّهم هم الذين انتُزِعوا من أمِّهم لترك كلٌّ واحدٍ على قلبها مثل المِكْواةِ المحميِّ عليها في النَّار إلى أن تحمَرَّ ؛ ولكنَّ أمَّهم هي التي نُزِعت منهم ، فكان بقاؤهم في الحياة تخفيفاً لسَكْرةِ الموت عليها . وغَشِيَتْها الغَشيةُ ، فماتت وهي تضحك ؛ إذ تراهم نائمين تحت جَناح الرَّحمة الإلهية الممدود ، وقالت : إنَّها تسمع أحلامَهم . وكانوا همْ عقلَها في ساعة الموت !

تبارك الذي جعلَ في قلب الأمِّ دنيا من خَلْقِه هو ، ودنيا من خَلْقِ أولادها !

تبارك الذي أثابَ الأمَّ ثوابَ ما تُعاني ، فجعل فرحَها صورةً كبيرةً من فرح صغارِها !

* * *

وجاء أكبرُ الأطفالِ الخمسة ، وكأنَّه ثمانيةُ أرطالٍ من الحياة ، لا ثمانيةُ أعوام من العمر ؛ جاء إلينا كما يجيء الفزَعُ لقلوبٍ مطمئنةٍ ؛ إذ كان في عينيه الباكيتين معنى فقد الأم !

وطغَتْ عليه الدُّموعُ ، فتناول منديلَه ، ومسحَها بيده الصغيرة ، ولكنَّ روحَه اليتيمةَ تأبى إلا أن ترسمَ بهذه الدُّموعِ على وجهه معانيَ يُتْمِها !

وظهرَ الانكسارُ في وجهه يعبِّرُ ببلاغةٍ : أنَّه قد أحسَّ حقيقةَ ضعفِه ، وطفولتِه بإزاء المصيبة ؛ التي نزلتْ به ، وجلس مستسلِماً ، تترجم هيئتُه معانيَ هذه الكلمة : « رفقاً بي ! » .

ثُمَّ تطير من عينيه نظراتٌ في الهواء ، كأنَّما يحسُّ أنَّ أمَّه حوله في الجو ، ولكنَّه لا يراها !

ثم يُرخِي عينيه في إغماضةٍ خفيفةٍ ، كأنَّما يرجو أن يرى أمَّه في طَوِيَّتِه !

ولا يُصَدِّق : أنَّها ماتت ، فإنَّ صوتَها حيٌّ في أذنيه ، لا يزال يسمعه من أمسِ !

ثُمَّ يعود إلى وجهه الانكسارُ ، والاستسلام ، ويتململ في مجلسه ، فينطقُ جسمهُ كلُّه بهذه الكلمة : « يا أمي ! » .

* * *

أحسَّ ـ ولا ريب ـ أنَّه قد ضاع في الوجود ؛ لأنَّ الوجودَ كان أمَّه .

ولمس خشونةَ الدنيا منذ السَّاعة ، بعد أن فقدَ الصَّدرَ الذي فيه وحده لينُ الحياة ؛ لأنَّ فيه قلبَ أمِّه ، وروحَها .

وشعر بالذُّلِّ ينسابُ إلى قلبه الصَّغير ؛ لأنَّ تلك التي كان يملك فيها حقَّ الرَّحمة قد أُخِذَتْ منه ، وتركتْه بلا حقٍّ في أحدٍ ، وليس لأحدٍ أُمَّان !

ولبِسته المسكَنَةُ ؛ لأنَّ له شيئاً عزيزاً أصبح وراء الزَّمانِ ، فلن يصلَ إليْه !

وارتسم على وجهه التَّعجُّب ، كأنَّه يسألُ نفسَه : « إذا لم تكن أمي هنا ؛ فلماذا أنا هنا ؟! » .

ثم تَغَرْغَرَتْ عيناه ، فيُخرِجُ منديلَه ، ويمسح دمعَه بيده الصَّغيرة ، ولكن روحَه اليتيمةَ تأبى إلا أن ترسمَ بهذه الدُّموعِ على وجهه معانيَ يُتْمِها !

* * *

ونهض الصغيرُ ، ولم ينطق بذاتِ شَفَةٍ ، نهض يحمل رجولتَه ؛ التي بدأت منذ السَّاعة !

انتهت ـ أيُّها الطفلُ المسكينُ ! ـ أيامُك من الأمِّ ؛ هذه الأيام السَّعيدةُ التي كنتَ تعرف الغَدَ فيها قبل أن يأتيَ معرفتَك أمسِ ؛ الذي مضى ؛ إذ يأتي الغدُ ومعك أمُّك !

وبدأتْ ـ أيُّها الطفلُ المسكين ـ أيامُك من الزَّمن ، وسيأتي كلُّ غدٍ محجَّباً مرهوباً ؛ إذ يأتي لك وحدك ، ويأتي وأنت وحدك !

الأمُّ . . . ؟ يا إلهي ! أيُّ صغيرٍ على الأرض يجدُ كفايتَه من الرُّوح إلا في الأمِّ ؟!

* * *